دراسة فنية لنماذج من الأسقف الخشبية للفترة العثمانية

د/خديجة نشار*

استقرار الجزائر في الفترة العثمانية بعد القرن ١٧م سياسيا واقتصاديا واجتماعيا أدّى إلى ظهور حركة عمرانية ومعمارية نشطة داخل أسوار المدينة أي القصبة وخارجها أي منطقة الفحص.

بنيت في هذه الفترة وما بعدها مجموعة من القصور والمنازل الفخمة التي كانت ترجع إلى الحكام وحاشيتهم أو الخواص الأغنياء. كانوا يملكون قصورا داخل أسوار المدينة [١] ويمكثون فيها في فصل الشتاء، أما القصور المتواجدة في منطقة الفحص[٢] . مخصصة لفصل الصيف حيث كانت هذه الأخيرة محاطة ببساتين وحدائق للراحة والاستجمام.

الجدير بالذكر هو أن كل هذه القصور والمنازل رغم التحويلات التي طرأت عليها أو الترميمات، لازالت تحافظ على عناصرها المعمارية التي ازدادت بها في الفترة العثمانية، ونخص بالذكر العناصر المعمارية الخشبية بمختلف أنواعها وأشكالها.

استعملت مادة الخشب منذ القدم في المباني، واستغل الإنسان من هذه الثروة الطبيعية كل ما تحتوي عليه من جذوع وأغصان لتلبية حاجاته. استعمل كوحدة أساسية لتدعيم المباني وهذا لما يحتوي عليه من خصائص ومميزات مثل امتداده وانكماشه ما بين الفصلين الشتاء والصيف وامتصاص الرطوبة وتقوية الجدران لمنع سقوطهم والتخفيف من حمولة مواد البناء المستعملة. (عند حصول الكوارث الطبيعية مثل الزلازل).

انتشرت الثروة الغابية بالجزائر في مناطق التل والهضاب العليا ومرتفعات الأطلس الصحراوي حيث كانت أنواع مختلفة من الأخشاب، نذكر البعض منها:

- البلوط الأخضر وبلوط الفلين والمران والعرعار مخصص للصناعات البحرية.
- الأرز، الصنوبر، البلوط، والعرعار، مخصص لهياكل البناء.
- البلوط، القسطل، الجوز، اللوز، الزيتون وغيرهم مخصص للنجارة الفنية.

لكن استغلال هذه الثروة الطبيعية بوفرة في أواخر العهد العثماني في مجالات عديدة مثل بناء المساكن وصنع السفن والأثاث أدى إلى تقلص هذه الثروة الغابية.

تفرع الصناعة الخشبية إلى عدة مجالات أدى إلى ظهورها في ما يتعلق بالعناصر المعمارية، مثل الأبواب[٣] والنوافذ، السقوف، القباب، السلالم، الدرابازين[٤]، ومنها ذات الاستعمال اليومي مثل المرايا، الأسرة والصناديق بأحجامها المختلفة وغيرها من التحف.

---

* الجزائر

[١] - دار عزيزة ،قصر حسن باشا ، دار خداوج العمياء، دار الصوف ...الخ

[٢] - جنان المفتي ، قصر مصطفى رايس ، جنان ، قصر

[٣] صورة رقم ١

[٤] صورة رقم ٢

إن تقنية الزخرفة التي سادت في الغالب هذه السقوف هي التلوين باللاكية والتذهيب، أما التقنيات الزخرفية التي شملت عليها الصناعات الخشبية نذكر منها: الحفر الغائر، الحز، الكشط أو الشطف، الزخارف المخرمة، التجميع، التعشيق والتطعيم. تتم عملية التلوين باللاكية والتذهيب بعد معالجة القطعة الخشبية، حيث تتم تغطية سطحها بطبقة سميكة من الشمع والنفط اللذان يحفظان الخشب من الرطوبة التي تؤثر على الألوان. أما المساحيق المعدنية المستعملة في التلوين تتم إذابتها في صفار بيض محلل في النبيذ أو الغراء المستخلص من السمك أو ورق الغزال. عمّ استعمال السقوف الخشبية في القصور والمنازل الفخمة، في الفترة العثمانية ولكن شكلها واستعمالها يختلف باختلاف وظيفة المكان والمساحة. كانت السقوف في كل من السقيفة والأروقة والسلالم وبيوت الطابق الأرضي تستعمل فيها غالبا عوارض دائرية أو مربعة الشكل لا يتعدى طولها ١,٢٠ مترا، والمسافة بين كل واحدة منها قدرها ٠,٣٠ مترا. أما سقوف الغرفة الموجودة في الطابق العلوي كانت في الغالب قطع خشبية نفذت عليها الزخارف باللاكية . كما نلاحظ استعمال بعض القطع الخشبية على شكل أشرطة لتحديد المساحات الزخرفية أو قطع ذات أشكال مختلفة تزين مساحة السقف.

إن استعمال تقنية التلوين باللاكية أعطت للفنان حرية في التعبير، واستعمال عناصر زخرفية متنوعة ودقيقة على السقوف الخشبية. من أبرز العناصر الزخرفية التي عمت هذه النماذج:

- العناصر الهندسية تتمثل في الأشرطة المستطيلة والمعينات ذات مقاسات مختلفة. الأشكال البيضوية والدوائر- المثلثات. المضلعات ذات الزوايا المقعرة والأطباق النجمية.
- العناصر النباتية متمثلة في الأغصان والأوراق والأزهار والفروع بأشكالها وأنواعها المختلفة.

كما نجد في بعض السقوف نماذج من أطباق بها فواكه مثل الرمان، التفاح والسفرجل.

النموذج الأول: (٣٨-٣٩)

سقف خشبي لإحدى غرف دار العزيزة [٥] قوام زخرفية مجموعة من المعينات على أرضية حمراء، بداخلها وريدة ذات ستة فصوص باللون الذهبي، تتخلل هذه المجموعة من المعينات ثلاثة معينات ذات حجم أكبر تتوزع بالتساوي على هذا السقف.

النموذج الثاني:

[٥] - يرجع تاريخ بناء القصر إلى سنة ١٧٢١م. يوجد في أسفل القصبة.

تمثل هذه الصورة جزء من السقف الذي يحتوي على معين ذي حجم أكبر، يحده شريط زخرفي، رسمت فيه مجموعة من الأغصان والأوراق تتخللها كل من زهرة الرمان والزنبق، باللون الأخضر والأزرق على أرضية زرقاء.
يتوسط المعين ذو الأضلاع ذهبية اللون طبق نجمي وتنفذ من الأركان الأربعة ووسط كل ضلع جزء من طبق نجمي. زينت كل المساحة بأغصان وأزهار منها زهرة الزنبق والرمان.

النموذج الثالث:

سقف خشبي لإحدى غرف قصر حسن باشا[٦] يحتوي هذا الجزء من السقف على شريطين تتوسطهما دائرة تتخللها مجموعة من المثلثات تنفذ من دائرة في وسطها مجموعة من أوراق الأكنتس يغلب على هذه اللوحة اللون الأحمر والذهبي.

النموذج الرابع: (الشكل أ)

سقف خشبي لإحدى غرف قصر ١٨ بحصن ٢٣[٧] هذا الجزء من السقف يتكون من مستطيل ذو زوايا مقعرة يحفه شريط به غصن تتخلله وريدات ذات اللون الأزرق والوردي على قاعدة بيضاء . الأركان الأربعة زينت بطائر مفرود الجناحين بلون بني كما نجد دائرة بيضوية الشكل تحوي على دائرة محيطها مفصص أما مركز هذا الشكل عبارة عن دائرة بيضوية تنطلق منها (٣٦) سته وثلاثين شعاعا ، يتخلل كل شعاعين مجموعة من الأزهار المتمثلة في الورود و أزهار الرّبيع.

النموذج الرابع (شكل ب)

هذا الجزء من السقف يحتوي على نفس العناصر للجزء أ ، غير أن بداخل المستطيل رسم شريط به عناصر نباتية عبارة عن غصن به وريقات ووريدات على أرضية باللون الأخضر الفاتح . يحف بالدائرة شريطين عريضين بهما أغصان ملتوية تتخللهما أزهار وتتوسط هذه العناصر ورقة مفصصة ما يجعل للرسم فيه تشابه وتناظر للوحة. أماّ الدائرة ينفذ من مركزها شكل بارز نصف كروي زين بأوراق الأكنتس وتشع من هذا الشكل ثمانية معينات التي تتخللها ثمانية مضلعات كل هذه المساحات تحتوي على باقة أو غصن من الأزهار ذات الألوان الزاهية أما لون الأرضية وضع بالتناوب ما بين الوردي والأحمر والأزرق .

النموذج الخامس الشكل (أ)

[٦] قصر حسن باشا مؤرخ سنة ١٧٩١م. يوجد في أسفل القصبة مقابلا لدار عزيزة.

[٧]- حصن ٢٣ أو قصر رياس البحر بدأ بناءه في سنة ١٥٧٦م يحتوي على مجموعة من القصور -١- قصر ١٧-قصر – قصر ١٨ – قصر ٢٣ –يوجد في أسفل القصبة .

هذا الجزء من السقف [٨] يحتوي على دائرة محصورة داخل مستطيل ذو زوايا مقعرة . يحيط بالدائرة شريط زخرفي به أزهار مفصصة ذات لونين الأزرق والوردي ، وضع كل من اللونين بالتناوب.
في كلتا الجهتين للدائرة شريط عريض به زخارف نباتية يشبه الشكل (ب) من النموذج الرابع غير أن الاختلاف يكمن في تغيير استعمال الألوان حيث أن الشكل (ب) ذو ألوان فاتحة والشكل (أ) ذو ألوان داكنة تتمثل في البني والأحمر والأخضر.
أما الدائرة التي تتوسط المستطيل، إنا تحتوي على شكل نصف كروي في مركزها زين بأرواق الأكنتس ويشع منه عشرون شعاعا (يشبه العجلة) تتخلل هذه الأشكال ذات المساحة الخضراء الداكنة بساطا من الأغصان والأوراق والأزهار .

النموذج الخامس (شكل ب)

هذا الجزء من السقف عبارة عن مستطيل ذو زوايا مقعرة، تتوسطه دائرة على شكل طبق يحتوي على مجموعة من أنواع الفاكهة منها التين، الرمان والسفرجل يحيط بهذه الدائرة مجموعة من أوراق الأكنتس وزهرة الرنبق، المحصورة في شكل بيضوي، تشع من كلتا الجهتين إثنى عشر شعاعا (على اليمين واليسار) وبين كل شعاع خطوط ملتوية باللون الوردي والأزرق بالتناوب تتخللها أغصان وأوراق وأزهار مختلفة، أما المساحة المتبقية زينت بمجموعة من الزخارف النباتية المتمثلة في الأوراق المفصصة ذات اللون البني وأغصان وأزهار متنوعة من الورود والزنبق والنرجس .

الخاتمة:-

التأمل في هذه الزخرفة يكشف لنا عن أنها تقوم على العناصر النباتية المتمثلة في الأزهار والفروع والأغصان والأوراق والسيقان والطيور بعد تحويرها. كما نلاحظ أن الفنان ابتكر صورا جديدة تخضع لأصول الجمال الفني، باستغلاله للألوان الزاهية، والأشكال المختلفة.
إن رسم "الأرابسك" في هذه الفترة وانتشار استعمالها لن تجعل الفنان يترك الأسس الرئيسية التي يقوم عليها فن الزخرفة وهو التوازن والتقابل والتماثل والاشعاع.

البيبليوغرافيا.

_حليمي عبد القادر،الجزائر،نشأتها و تطورها قبل ١٨٣٠،المطبعة العربية.الجزائر،١٩٧٩.
_حمودة علي حسن،فن الزخرفة،القاهرة،١٩٧٢ .
_خليفة ربيع حامد،فنون القاهرة في العهد العثماني،القاهرة ،١٩٨٤.
_سعيدوني ناصر الدين و الشيخ المهدي بو عبدلي،الجزائر في التاريخ،ج٤،الجزائر١٩٨٤.

[٨] - قصر ١٨ بحصن ٢٣-

_عبد القادر نور الدين.صفحات في تاريخ مدينة الجزائرمن أشهر عصورها إلى إنتهاء العهد العثماني،قسنطينة١٩٦٥.

_مرزوق محمد عبد العزيز،الفنون الزخرفية الاسلامية في المغرب و الأندلس،د.ت.

Bibliographie

1- Arseven ,(C.E), Les arts décoratifs turcs , Istanbul , S.d.

2- Boyer,(P) , La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention français , hachette , Paris ,1964.

3- Carayon ,G, Le travail artistique du bois en Algérie ,F.Fontana, Alger ,1937.

4- Marçais , G, L'art en Algérie, imp. Algérienne ,Alger ,1906.

5- Chevalier ,(J) , La sculpture sur le bois , Alger , 1957.

6- Clevenot ,D.Degeorge ,G ,Décor d'Islam,citadelles et Mazernod ,Paris,2000.

7- Golvin, (L), Palais et demeurs d'Alger à la période ottomane ,O.P.U , Alger ,1988.

8- Klein ,(H),Feuillets d'el – djazair ,Alger ,1937.

9- Vachon , (M) , Les industries d'art indigènes en Algérie ,Alger , 1902.